مجموعـــــــة ســـــــيرة الرســـــــول

بإشراف

محمد أحمد برانق

١٥

بعـــــــد أحـــــــد

الطبعة الثالثة

دار المعارف

رقم الإيداع ٩٧٥٥/ ١٩٩٤
الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧-٠٢-٤٧٦٨-٥

٧/٩٤/٢١٢

الناشر: دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

١

﴿وقيلَ لَهم تَعالَوا قَاتِلُوا فِي سبيلِ اللهِ أَوِ ادفَعوا قَالُوا لَو نَعلَم قِتَالاً لَاَّتَّبعنَاكُم هم لِلْكُفْرِ يومئذٍ أَقْرب منْهم لِلإِيمانِ يقُولُون بِأَفْواههِم ما لَيس فِي قُلُوبِهِم واللهُ أَعلَم بِما يكْتُمون الَّذين قَالُوا لِإِخْوانِهِم وقَعدوا لَو أَطَاعونَا ما قُتِلُوا قُلْ فَادرؤُوا عن أَنْفُسِكُم الْموتَ إِن كُنْتُم صادِقِين﴾.

هذه آيات مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم في المنافقين، وفيما كان منهم قبل غ.زوة أحـ.دٍ، وفيما كان منهم بعدها؛ إذ تخلف المنافقون عن السير مع النبي والمسلمين حين خرجوا لقتال قريش. وكان قـ.ولهم في ذلك:

لو علمنا أنكم تقاتلون حقاً، لسرنا معكم ولدفعنا عنكم...!!

وكان الله يعلم أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم! وكان الله يعلم أنهم يظهرون الإيمـ.ان ويخفـ.ون الكفر والنفاق! ثم كان أن عاد المسلون إلى المدينة بعد غزوة أحد. وكان أن قابلهم المنافقون شامتين لأنهم خرجوا إلى أحدٍ ولم يبقوا بجانبهم فأصيبوا بما أصيبوا! وكان أن سخروا من هزيمتهم بقولهم لهم:

لو كان من قتل منكم عندنا، مطيعا لنا، منضما إلينا – ما قتل!

وكأنهم كانوا يستطيعون درء الموت عن أنفسهم إذا ما أتاهم الله به!

وقال اليهود بعد ما أصاب محمداً صلى الله عليه وسلم وأصاب المسلمين في أحدٍ:

ما محمد إلا طالب ملكٍ.. فما أصيب بمثل هذا نبي قط.. أصيب في بدنه! وأصيب في أصحابه!

وكان عبد الله بن عبد الله بن أبي مؤمناً صادق الإيمان. وكان ممن جرح بأحدٍ حتى أثقلته الجراح، فكان أبوه رأس المنافقين لا يكف عن تأنيبه وتقريعه على ما أصابه من جراء خروجه، فكان عبد الله يجيب أباه على تأنيبه إياه بقوله: إنما صنع الله لرسوله وللمسلمين خيراً.

وكان الخير حقاً فيما صنع الله للنبي وللمسلمين، حيث ظهر لهم نفاق المنافقين، وكشف أمامهم ريؤهم وخداعهم، حتى إن المسلمين حالوا بين عبد الله بن أبي وبين أن يقول كلمة اعتاد أن يقولها للمصلين يوم الجمعة في وجوب تعاونهم وتكاتفهم لنصرة محمد صلى الله عليه وسلم، فأخذوا بأثوابه يجذبونه منها جذباً ويمنعونه من التكلم عن النبي وهم يقولون له:

اجلس عدو الله! والله لست أهلاً لذلك، وقد صنعت ما صنعت.

فكان أن خرج ابن أبيٍ من المسجد مخذولاً وهو يقول:

والله لكأنما قلت هجرا مع أني قمت أشدد أمره!!

وكان لهذا المظهر الذي ظهر به المنافقون واليهود، وكشف للمؤمنين عن حقيقة أمرهم، أن جاء عمر بن الخطاب إلى الرسول يستأذنه في قتال اليهود والمنافقين واستئصال شأفتهم، فكان جواب النبي له:

إن لليهود ذمة علي فلا أقتلهم.

قال عمر: والمنافقون؟

قال الرسول: أو ليسوا يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟!

قال ابن الخطاب: بلى! ولكنهم امتنعوا عن القتال بجانب المـ.سلمين، فبـ.دا بـ.ذلك أمـ.رهم، وكـ.شف الله سريرتهم.

قال النبي: لقد نهيت عن قتل من أظهر الشهادة يا عمر!

وهكذا بقي المنافقون يبدون ما يبدون من نفاقهم، ويظهرون ما يظهرون من شماتة وسخرية، بـ.رغم مـ.ا عمل المسلمون صبيحة يوم أحدٍ على استرداد هيبتهم بخروجهم في أثر جيش قريش لمطاردته، قاطعين بذلك خط الرجعة على رجاله، لو حدثتهم أنفسهم وهم في نشوة النصر وفرحة الظفر بالرجوع ثانية إلى المدينة كي يغزوها.

وقد كان أن انصرف رجال قريش من أحدٍ عائدين إلى مكة، وهم مسرورون فرحون بانتـ.صارهم علـ.ى محمد والمسلمين. ولكنهم فكروا في أن يعودوا إلى المدينة على حين غرة من أهلها فيغزوها غـ.زوة مـ.ن أهلهـ.ا فيغزوها غزوة سهلة هيئة؛ لأن المسلمين لا يزالون مضعضعين منهوكي القوى من أثر هزيمتهم، معنيين بتضميد

جراحهم، مشغولين برثاء قتلاهم، وعلى هذا حط جيش قريش رحاله بالروحاء، وقد أجمع رجاله على الرجعة إلى رسول الله وأصحابه للقضاء عليهم.

حينئذٍ كان محمد صلى الله عليه وسلم قد نادى في المسلمين: من شهد أحدا فليخرج معي لمطاردة جـ.يش قريش، فلبى المسلمون الذين شهدوا أحدا النداء، وخرجوا وفي مقدمتهم الرسول برغم ما كان بهم جميعاً من تعبٍ، وما كان بأكثرهم من جراح.

ومر على الرسول وأصحابه – وقد حطوا بحمراء الأسد – معبد بن أبي معبدٍ الخزاعي، وكـ.ان بقبيلتـ.ه خزاعة ميل إلى رسول الله، وعطف على المسلمين؛ فقال معبد للرسول – وقد علم بما كان بين المسلمين وقريش: يا محمد! أما والله لقد عز علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك منهم.

وسار معبد حتى أتى جيش قريش وعلى رأسه أبو سفيان، فسأل أبو سفيان معبداً:

ما وراءك يا معبد؟

قال معبد: قد خرج محمد يطلبكم في جمعٍ من أصحابه لم أر مثله قط. وكلهم متلهف إلى قتالكم. يتحـرق شوقاً للقائكم.

قال أبو سفيان: ويحك!! ما تقول؟

قال معبد: والله ما أرى إلا أن ترتحل.

قال أبو سفيان: فو الله، لقد كنا أجمعنا الكرة عليهم، لنستأصل شأفتهم، ولنجتز بقيتهم!

قال معبد: إني أنهاك عن ذلك.

ودار رأس أبي سفيان، ولم يدر: أي طريق يسلك!! ولا إلى أي اتجاه يتجه!! أيسير إلى محمد فيقاتله، وقد جمع له محمد من تخلف عنه بالمدينة أول مرةٍ. وكلهم متحرق للقتال. وقد تكون هزيمته هو وجيشه على أيديهم، أم يكتفي بما نال من ظفرٍ ونصرٍ وفخارٍ على محمد صلى الله عليه وسلم ويعود إلى مكة مكرماً سالماً...؟!

وبينما أبو سفيان في أخذ ورد بينه وبين كبار قريش، مر بهم ركب من عبد قيس؛ فسأل أبو سفيان أهـ.ل الركب: أين تريدون؟

أجابوا: نريد المدينة للميرة والاتجار.

قال: أتبلغون عني رسالة لمحمدٍ، وأحمل لكم حمولتكم غداً بسوق عكاظ زبيباً إذا وافيتموها؟

قالوا: نعم.

قال: إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم.

قالوا: لك ذاك.

فلما قابل الركب محمداً صلى الله عليه وسلم بلغة مقالة أبي سفيان، فكان جواب محمد صـ.لى الله علي.ه وسلم:

حسبنا الله ونعم الوكيل!!

وانتظر محمد وأصحابه ثلاث ليالٍ قدوم أبي سفيان وجيشه للقتال، ولكن أبا سفيان لم يعد، فقد آثـ.ر هـ.و وأصحابه السلامة، وعادوا إلى مكة منصورين خوفاً من أن يعودوا إليها مخذولين منكسرين.

وعلم محمد صلى الله عليه وسلم بعودتهم، فعاد إلى المدينة، وقد عرف أنه لن يكون بينه وبين قريش قتال إلا في موعدهم الذي تواعدوا عليه ببدرٍ من العام القادم.

ولكن بقي أمام محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء المنافقون الذين يمطـ.رون المـ.سلمين بكلمـ.ات الهـ.زء وعبارات السخرية، وبقي أمامه اليهود الذين بدءوا يستخفون بالمسلمين، وزال عنهم ما كانوا يشعرون به نحـ.وهم من خشيةٍ وهيبةٍ، وبقي أمامه سائر قبائل جزيرة العرب الذين أخذوا يتطلعون إلى غزو المـ.سلمين المنكـ.سرين، طامعين أن ينالوا من وراء ذلك مغنماً من ثمارهم وأنعامهم، وأخذ محمد صلى الله عليه وسلم يفكر فيما يجب عليه أن يعمل ليرجع للمسلمين مكانتهم، ويسترد هيبتهم.

* * *

٢

ووصل إلى سمع محمد صلى الله عليه وسلم أن أرض بني أسد بنجدٍ فيها من يجمع الجموع لغزوه وقتاله؛ فأمر بتجهيز جيش من مائة وخمسين مقاتلا أمر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد، وأمره بالمسير إلى قط.ن حيـ.ث تتجمع جموع بني أسدٍ؛ لمقاتلتها قبل أن تتم أهبتها لقتال المسلمين.

فسار أبو سلمة ورجاله – بعد أن زودهم النبي بنصائحه، وأوصاهم بتقوى الله– حتى انتهوا إلـ.ى قط.نٍ، وأحست جموع بني أسدٍ بقدوم المسلمين قبل أن تتخذ أهبتها لقتالهم، فتفرقت هاربة تاركة وراءها غنيمة لا بـ.أس

بها من الإبل والغنم، فاستولى عليها جيش المسلمين، وأسر ثلاثة من الموالي كانوا يرعونها، وعادوا إلى ا لمدينة وقد عزلوا للرسول وللفقراء وأبناء السبيل خمس غنيمتهم، وقسموا الباقي فيما بي.نهم عل.ى حـ.سب شـ.ريعة الله والرسول.

وكذلك علم محمد صلى الله عليه وسلم أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع الجموع بنخلة ليغزوه بها، فأرسل إليه عبد الله بن أنيسٍ يتجسس له حقيقة الخبر. فأتى عبد الله إلى خالد وهو في منزل مع نساء له، فـ.سأل خالد عبد الله: من الرجل؟!

فأجاب عبد الله: أنا رجل من العرب سمع بك وبجمعك لمحمدٍ فجاءك لذلك. فلم ينكر الرجل أنـ.ه يجمـ.ع الجموع لذلك. فلما تأكد لدى عبد الله صحة ما جاء من أجله حين فرصة انفرد فيها بالرجل فحمل عليه بالـ.سيف فقتله. وعاد إلى المدينة تاركاً نساء خالدٍ منكباتٍ عليه يبكينه.

وتفرقت جموع هذيل إلى حين، وإن كان قد أصبح لديها سبب تفكر فيه ويبرر مقاتلة محمدٍ. ذلك الـ سبب هو الانتقام لمقتل زعيمها خالد والثأر له.

وهكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم مبادراً إلى قتال كل من تحدثهم أنفسهم بالنيل مـ ن المـ سلمين، أو الاستخفاف بشأنهم. وفي هذه الآونة أتى نفر من قبيلةٍ تجاور هذيلاً. وقالوا محمد صلى الله عليه وسلم:

يا محمد؛ إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القـ رآن، ويعلموننـ ا شرائع الإسلام.

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يبعث إلى القبائل التي فيها ميل إلى الإسلام مـ ن أصـ حابه مـ ن يعلـ م مسلميها آيات الله. ويفقهم في دينهم، ويعرفهم شرائعه، فتخير ستة من أصحابه، فبعث بهم مع هؤلاء النفر. وغادر هذا الجمع المدينة، وبينما هم على ماء لهذيل بناحية من الحجاز تدعى الرجيع إذ بالوفد وقد غدر برجـ ال محمـ د صلى الله عليه وسلم، وإذا به وقد استصرخ واستنصر برجال هذيلٍ على جماعة المسلمين وهم ستة لا يزيدون.

إذ ذاك أسرع رجال هذيل إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وبأيديهم السيوف! وبغت رجال محمد الستة. ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا غدر مرافقيهم بهم، وعرفوا أنهم ما استدرجوهم وأتوا بهم إلا لتنتقم هذيل مـ.نهم لمقتل زعيمها خالد بن سفيان بن نبيح. فأخرجوا سيوفهم من أغمادها يدفعون بها عن أنفسهم شر هذا الغدر الـ.ذي غشاهم وأحاط بهم، ولكنهم سمعوا رجال هذيل يقولون لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. ووجد أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم أن ما يعرضه علـ.يهم القوم من عهد هو شر من قتالهم لهم، فأجابوهم: والله، إنا لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً.

وعلى ذلك انتضى المسلمون السيوف يقاتلون بها المشركين الغادرين، برغم قلة عـ.ددهم وكثـ.رة عـ.دد أعدائهم.

وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن تغلبت الكثرة على القلة، فقتل من المسلمين ثلاثة. هم مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، وأسر الثلاثة الباقون. وهم: خبيب بن عديٍ، وزيد ابن الدثـ.ة،

وعبد الله بن طارقٍ، وكان عاصم بن ثابت قد قتل في وقعة أحد بين المسلمين وقريش: مـ.سافعاً وطلحـ.ة ولـ.دى سلافة بنت سعدٍ، فنذرت أمهما أن من يأتيها برأس عاصم تشرب في قحفته الخمر تعطيه مائة منم الإبل. فلما قتل مشركوا هذيل عاصماً – وكانوا قد علموا بنذر سلافة – طمعوا في أن تكون المائة من الإبل من نصيبهم، فساروا إلى جثة عاصمٍ، ليجتثوا رأسه، فإذا بها وقد حام عليها جيش من الزنابير حالت كثرته دونهم ودون الاقتراب منها. فقالوا: فلندعه حتى يمسي المساء وتذهب الزنابير.

فلما أمسى المساء وذهبوا إلى حيث كانت جثة عاصم ليجتثوا رأسه، لم يجدوا لجثة عاصـ.م أثـ.راً؛ فقـ.د اجترفها سيل، وذهب بها إلى حيث لم يعرفوا لها مقرا..!

وهكذا خيب الله رجاءهم، ومنع قحفة رأس عاصمٍ من أن توفى فيها سلافة بنذرها وتشرب فيها خمراً...!

وسارت هذيل بالثلاثة الذين أسرتهم إلى مكة لتبيعهم إلى أهلها، وقد قيدت الأسرى بأوتار أقواسهم، فلمـ.ا كنوا بوادي الظهران قرب مكة استطاع عبد الله بن طارق أن ينزع يديه من الوثاق، وأن يتناول سيفه ليقاتل بـ.ه،

ولكن القوم استأخروا عنه، وتكاثروا عليه يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه. وساروا بالأسيرين الباقيين حتـى أتـوا مكة، فباعوهما فيها، فاشترى زيد بن الدثنة صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلفٍ، واشترى خبيبا حجير بـن أبي إهاب ليقتل في قريب له.

ودفع صفوان بن أمية بزيد بن الدثنة إلى مولى له يدعي نسطاس ليقتله، فخرج به إلى التنعـيم – وهـو مكان على بعد فرسخين من مكة – فلما هم بقتله وقد اجتمع من حوله نفر كبير من أهل مكة، فيهم أبو سفيان بـن حربٍ، تقدم أبو سفيان من زيدٍ يقول: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضر عنقه، وأنت في أهلك؟

قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي!

إذ ذاك لم يسع أبا سفيان إلا أن يقول متعجباً: ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحـب أصـحاب محمدٍ محمدا!!

وقتل نسطاس زيداً، فمات شهيد أمانته لدينه، ووفائه لنبيه...! أما خبيب فقد حبس حتى إذا خرجوا به من محبسه إلى التنعيم ليصلبوه ويقتلوه. قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا.

فقالوا له: دونك، وما أردت.

فركع زيد ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم يقول: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة.

ولما رفع خبيب إلى الخشبة التي صلب عليها وأوثق بها – رفع عينيه إلى السماء يقول: اللهم إنا ما قصرنا في تبليغ رسالة رسولك، فبلغه ما يصنع بناء!! اللهم إني لا أجد ها هنا أحداً يبلغ رسولك عني السلام، فبلغه عني السلام..!!

ثم نظر خبيب إلى الجمع الذي التف من حوله ينتظر مقتله، وقال:

اللهم أحصهم عددا. واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا..!! فهو يدعو عليهم أن يقتلوا جميعاً متفرقين.

حينئذٍ أخذت القوم رجفة شديدة استلقوا على أثرها بجنوبهم إلى الأرض خوفاً من أن تصيبهم لعنة خيبر التي استمطرها عليهم بشرها.

ثم ما لبث القوم أن قتلوا خبيباً، فلحق بزيدٍ وبأصحابه الشهداء، وكان حزن النبي على أصحابه الذين استشهدوا في سبيل دين الله وفي سبيل أداء رسالة رسوله عظيماً جدا. ورثاهم الشعراء أبلغ رثاء، وبكاهم المسلمون أحر بكاء.

أما المنافقون فقد قالوا فيهم: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا.. لا هم قعدوا في أهلهم! ولاهم أدوا رسالة صاحبهم...! ولم يمض على هذا الحادث وقت طويل حتى أتي إلى النبي أبو براء عامر بن مالك – ويعرف بملاعب الأسنة – وهو رجل من أهل نجدٍ؛ مسموع الكلمة في قومه؛ فعرض النبي عليه الإسلام فلم يسلم،

ولم يظهر كراهية للإسلام، وقال: يا محمد؛ لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجدٍ فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك.

قال رسول الله: إني أخشى عليهم أهل نجدٍ.

قال أبو براءٍ: أنا لهم جار، فابعثهم يدعون الناس إلى أمرك.

ولما كان أبو براء رجلاً ذا مكانةٍ في قومه، يأمن على نفسه من أجاره وشمله بحمايته. فقد وافـ.ق النبـ.ي على إرسال نفرٍ من أصحابه لذلك الغرض، وتخير لذلك جماعة كبيرة من خيار المسلمين حافظي القـ.رآن، يبلـ.غ عدد أفرادها أربعين رجلاً، عليهم المنذر بن عمرو؛ وفيهم عامر بن فهيرة مولى أبي بكر. وغادرت هذه الجماعة المدينة ووجهتها نجد، حتى إذا كانت على بئر معونة – وتقع بين أرض بني عامرٍ وحرة بنـ.ي سـ.ليم– حطـ.ت رحالها، وأرسلت من هناك بأحد رجالها إلى عامر بن الطفيل يحمل إليه كتاباً من رسول الله.

ولم ينظر ابن الطفيل إلى كتاب الرسول، ولم يمهل حامله، بل عدا عليه فقتله، واستصرخ بني عامرٍ لقتال أصحاب الرسول، وأبي بنو عامرٍ قتال أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وقالوا: نحن لا ننقض عهد أبي براءٍ ولا نغدر بمن أجارهم.

عندئذ استعان ابن الطفيل على المسلمين بقبائل من بني سليمٍ، فخرجوا إليهم، وأحاطوا بهم فـ.ـي مذ.ـزلهم على بئر معونة، يحاربونهم ويقاتلونهم شر قتالٍ.

وكانت مفاجأة سيئة للمسلمين لم يكونوا ليتوقعوها، ولكنهم أسرعوا إلى سيوفهم فشرعوها بأيديهم يدفعون بها عن أنفسهم، ويقتلون من مهاجميهم من استطاعوا إلى قتله سبيلاً.

ثم انتهت المعركة – وأسفاه!! – بانتهاء المسلمين جميعاً...! إلا اثنين منهم، نجا الأول وبه رمـ.ـق مـ.ـن الحياة استطاع معه أن يعود بعد حين إلى المدينة، ونجا الثاني وهو عمرو بن أمية بأن أسره عامر بن الطفيل، ثم أعتقه برقبةٍ كانت على أمه.

وكر عمرو بن أمية عائداً بمفرده إلى المدينة، وبقلبه لوعة على أصحابه الذين تركهم من ورائه طعاماً للكواسر والجوارح من الطير، وبصدره غل أي غلٍ على من أنزل بالمسلمين هذه الكارثة، وأصابهم هذا المصاب الفادح.

وبينما عمرو في طريقه، وقد سكن إلى ظل يستريح فيه من عناء سيره، إذ أقبل إلى هذا المكان الظليل رجلان يبغيان السكون والراحة من متاعب الطريق مثله، فلما استقر بهما المقام بجواره سألهما عمرو: من أنتما؟ قالا: من بني عامر.

فأمهلهما عمرو حتى ناما. ثم قام إليهما فقتلهما، وهو يحسب أنه قد نال بهما بعض الثأر من مقتل أصحابه الأبرياء.

ولكنه حين عاد إلى المدينة، وقص على النبي خبر هذين الرجلين فيمال حمله إليه من أخبار قال له النبي أسفاً:

يا عمرو؛ بئس ما صنعت!! قتلت رجلين كان لهما مني أمان وجوار. فوجب علي ديتهما.

وذلك أن هذين الرجلين كانا من قوم أبي براء، وكان معهما كتاب من رسول الله فيه عهد منه وفيه عقد جوار.

وحزن النبي على ما أصاب أصحابه حزناً عميقاً بالغاً، وقال:

هذا عمل أبي براء!! لقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً؟!

وقد بلغ من حزن النبي أنه ظل شهراً يدعو الله بعد صلاة الفجر أن ينتقم لأصحابه ممن قتلهم.

وكان حزن أبي براء كذلك شديداً جدا لما نال أصحاب محمد علي يد عامر بن الطفيل بعد أن أمنهم هو وأجارهم.

وأنشد حسان بن ثابت شاعر المسلمين الأول الأشعار الحارة في رثاء القتلى، وفي تحـ.ريض أولاد أبـ.ي براءٍ على الانتقام لهم، فسار ربيعة بن عامر من أبناء أبي راء إلى ابن الطفيل وطعنه برمحه، وكان ابن الطفيـ.ل راكباً فرسه فلم تصب منه الطعنة مقتلاً، ولكنها أصابت فخذه فسقط عن فرسه إلى الأرض وهو يقول: هذا عمـ.ل أبي براءٍ، إن مت فدمي لعمي، فلا يتبعن به، وإن عشت فسأرى رأيي فيما أتى إلي.

وأرسل أبو براءٍ إلى النبي فرساً هدية، فردها النبي ولم يقبلها قائلاً: لا أقبل هدية مشركٍ.

وكان لحادثتي يوم الرجيع ويوم بئر معونة أثر بالغ في معنوية المسلمين تجاه أعـ.دائهم مـ.ن المنـ.افقين واليهود، وسائر قبائل العرب المناوئة لهم، مما جعل النبي يفكر فيما يجب عليه أن يتخذ من وسائل، ويتبـ.ع مـ.ن تدابير، تعيد إلى المسلمين مكانتهم وترجع إليهم هيبتهم.

* * *

٣

وخرج الرسول في عشرةٍ من أصحابه، فيهم: أبو بكر، وعمر، وعلي – إلى يهود بني النضير يـ.ستعين بهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو ابن أمية خطأ.

وأظهر يهود بني النظير للرسول وأصحابه البشر والسرور لمقدمهم. وأجلسوهم في مجالسٍ لهم بجـ.وار دارٍ ذات دارٍ عالٍ، ولما خاطبهم الرسول فيما جاء إليهم من أجله أجابوه: نعم؛ يا أبا القاسم!! نعيذـ.ك علـ.ى مـ.ا أحببت، مما استعنت بنا عليه.

ثم خلا بعضهم إلى بعضٍ يتحدثون ويتهامسون، ودخل أحدهم إلى الدار التي كان الرسول يستند بظهره إلى جدارها، عندئذ نهض الرسول من مجلسه، وغادر المكان، وقد ظن أصحابه وظن اليهود أنه قد قام إلى حاجة له.

ومر الوقت دون أن يعود النبي محمد صلى الله عليه وسلم...! وعجب أصحابه من غيبته التي لم يكونوا يعرفون لها سبباً...! أما اليهود فقد ظهرت عليهم الحيرة واستبد بهم القلق..!

ولما طالت غيبة الرسول عن أصحابه نهضوا من مجلسهم يلتمسونه باحثين عنه، وبينما هم في طريقهم نحو المدينة التقوا برجلٍ مقبلٍ منها، فلما سألوه، هل رأيت رسول الله؟!!

أجابهم: نعم رأيته داخلاً المدينة، فسار أصحاب الرسول نحو المدينة مسرعين، وهم في لهفة على معرفة السبب الذي دعا الرسول إلى مغادرتهم والعودة إلى المدينة دون أن ينجز ما ذهب إلى بني النضير من أجله!

فلما أتوا المدينة أقبلوا على محمد صلى الله عليه وسلم يسألونه السبب؟ فأخبرهم أن اليهـ.ود قـ.د تـ.آمروا عليه، ونووا الغدر به..! وأنه كان قد رابه من أمرهم ريبة، وتوجس منهم خيفة، فجاءه الوحي بما أيد ريبته وأكد خيفته..!

وكان هذا حقاً، فقد تآمر عليه اليهود..! فقد وجدوا في جلوس النبي إلى جانب الجدار فرصة مواتية لهـ.م لقتله والتخلص منه، وما كان الرجل الذي دخل الدار التي كان يجلس بجوارها الرسول إلا الرجل الـ.ذي تطـ.وع لمهمة القضاء على محمد صلى الله عليه وسلم بإلقاء صخرةٍ ضخمةٍ عليه من أعلى جدار الدار...!

وأدرك صحاب النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من أمر اليهود مما فاتهم إدراكه، وعرفوا أن النبي كان على حقٍ حين غادر المكان دون كلمةٍ...! وبهذا الغدر الشنيع من جانب يهود بني النضير نقض العهد الذي كـ.ان بينهم وبين النبي، وحق للنبي أن يتخذ بشأنهم أي قررا يشاء، وأي خطة يريد.

وبعث النبي إلى يهود بني النضير: أن اخرجوا من بلادي، فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً. فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه.

وأخذ أكثر اليهود في التجهيز للرحيل فرارا بأرواحهم وأموالهم، ولكن رأس المنافقين عبد الله بـ.ن أبـ.ي أرسل إلى اليهود يقول: لا تخرجوا، بل أقيموا في دياركم وأموالكم، وتحصنوا بحصونكم، فإن معي ألف.ين مـ.ن قومي ومن العرب يدخلون معكم. ويحاربون دونكم..!!

وعلى هذا أرسل كبير بني النضير حيى بن أخطب إلى محمد صلى الله عليه وسلم يقول له: إنا لن نخرج من ديارنا وأموالنا فاصنع ما بدا لك.

وهكذا مرت الأيام العشرة التي أمهلهم إياها النبي، وهم مقيمون بديارهم، وقد غرهم من أنفسهم ومن وعد ابن أبي الغرور.

وأعلن النبي الحرب عليهم، وسار إليهم بجيش المسلمين، فحاصروهم في حصونهم عدة ليالي، واليهـ.ود يرمون جيش المسلمين بسهامهم ونبالهم، وبما جمعوا لهذا الغرض من أحجار! حتى أمر النبي بتقطيـ.ع نخـ.يلهم وحرقه. عندئذٍ شق على اليهود ذهاب أموالهم التي يدافعون عنها وبقوا في المدينة من أجلها فنادوا: يا محمد؛ قـ.د كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها! وفي هذا أنزل الله: ﴿**ما قَطَعتُم مـ.ن لِّينَةٍ أَو تَرَكْتُموها قَائِمةً علَى أُصولِها فَبِإِذْنِ اللهِ ولِيخْزِي الْفَاسِقِين**﴾.

وانتظر اليهود ما وعدهم به عبد الله بن أبي من نجدةٍ سدى، ولم يمدهم بنو أعمامهم يهود بنـ.ي قريظـ.ة بسلاح ولا برجالٍ، فدب في نفوسهم اليأس، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فجعلوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأرسلوا إلى محمد:

إنا رضينا الخروج، فأمنا على أرواحنا وأموالنا.

فأرسل إليهم: لن أقبل هذا منكم اليوم، ولكن: اخرجوا، ولكل ثلاثة منكم حمولة بعير إلا السلاح.

وارتضى اليهود الخروج بما اشترطوا عليهم النبي به، بعد أن ضيعوا بعصيانهم أوامر الرسول، وبإتباعهم وعود ابن أبي الخادعة، أكثر أموالهم، وجلا بنو النضير في نسائهم وأطفالهم، وشقوا في خروجهم سوق المدينة، والنساء في الهوادج يلبسن الحرير والديباج، ويتحلين بحليٍ من ذهب، وهن يضربن بالدفوف، ويزمرن بالمزامير، تجلدا ومكابرة.

وهكذا خرج بنو النضير من المدينة، وساروا إلى خيبر، فنزل أكثرهم بها، وسار بعضهم إلى الشام ونزل على حدودها.

وترك اليهود من ورائهم مغانم كثيرة، كان أكثرها السلاح، وأنفعها ما خلفوا من مزارع وأراض.

وجمع الرسول الأنصار من الأوس والخزرج، وبعد أن أثنى على ما فعلوا مع أخوانهم المسلمين من المهاجرين، وحمد لهم ما قدموا لهم من أموالهم ومساكنهم قال لهم: إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء

الله على من بني النضير، وأن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فكان جواب سعد بن عبادة عـ.ن الخـ.زرج، وسعد بن معاذ عن الأوس: يا رسول الله، بل تقسمه للمهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا.

ونادت الأنصار جميعاً، رضينا وسلمنا يا رسول الله.

فكان جواب الرسول أن دعا الله لهم: اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار! وقسم الرسول مـ.ا أفـ.اء الله عليه من أرض على المهاجرين دون الأنصار. إلا اثنين من الأنصار فقيرين ومحتاجين، فأعطى كلا منهمـ.ا مـ.ا أعطى الفرد من المهاجرين، وكان اثنان من يهود بني النضير قد أسلما فبقيا في ديارهما وأموالهما.

وبهذا صار للمهاجرين مال وديار، عوضتهم بعض العوض عما تركوا بمكة، وأغنتهم عـ.ن أن يكونـ.وا عالة على إخوانهم الأنصار.

وكان كاتب سر النبي من اليهود، فلما كانت وقعة بني النضير هذه أمر النبي فتعلم العبري.ة والـ.سريانية شاب من شباب المسلمين، هو زيد بن ثابت، وبذلك أمن النبي على مكاتباته ومراسلاته من أن يحدث بها تحريف أو تغيير.

ومرت على المسلمين بعد ذلك فترة راحةٍ وسكونٍ، وقد أعادت لهم حادثة بني النضير ما فقدوا من مكانةٍ وهيبةٍ عند المنافقين. وفي هذه الفترة السالفة، وبين هذه الأحداث والحوادث. كان أمر الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم بتحريم شرب الخمور.

وفي هذه الفترة السالفة أيضا كان زواج النبي من أم سلمة أرملة أبي سلمة بن عبد الأسد الـ.ذي أرسـ.له محمد صلى الله عليه وسلم لحرب بني أسدٍ، فلما عاد لم يعش بعد ذلك طويلاً؛ إذ كان قد أصيب في أحدٍ بجـ.رح بالغٍ، ظل يعالجه حتى التأم، فلما خرج لحرب بني أسدٍ عاد الجرح فدمى ونغر عليه، حتى قضى على حياته.

وحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وهو على فراش موته، وظل بجانبه يدعو له بخير حتى مات. وترك أبو سلمة من ورائه زوجةً قد تخطت سن الشباب. وعددا كبيرا من الأطفال الصغار، فلما مرت بضعة شهور تقدم النبي من أم سلمة يطلب يدها، فاعتذرت بكبر سنها، وكثرة عيالها، ولكن النبي ما زال بها حتى قبلت، فتزوجها، ورعى أولادها.

وبذلك كان النبي يضرب للمسلمين الأمثال، في ألا يتركوا نساء المجاهدين وأطفالهم عرضة للبؤس والاحتياج.

كما ضرب النبي مثلاً آخر للمسلمين بزواجه من ابنة عمته زينب بنت جحشٍ، وكان قد زوجها لمولاه وولده بالتبني زيد بن حارثة؛ ليستن بذلك سنة منع فوارق الطبقات بين الأشراف والموالي؛ ولكن زينب لم تستطع معاشرة زيدٍ كزوجةٍ مطيعةٍ ففارقها زيد. فأراد النبي الزواج منها؛ ليستن للمسلمين سنة أخرى وهي زواج المتبني من زوج متبناه، وزواج المدعي من زوج من ادعاه، وكان ذلك محرماً عند العرب في الجاهلية، ولكن محمداً

صلى الله عليه وسلم ظل متردداً في هذا الأمر، يخشى الإقدام على تنفيذه، حتى أمره الله به، فأقدم عليه وتـ.زوج من زينب.

ولهذا كانت زينب بنت جحش تتيه على أزواج النبي بقولها لهن:

لقد زوجكن أهلوكن، أما أنا فقد زوجني الله.

وكان أمر الله لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم في زواج زينب:

﴿فَلَما قَضى زيد منْها وطَرا زوجنَاكَها لِكَي لاَ يكُون علَى الْمؤْمنِين حرج فِي أَزواجِ أَدعِيائِهِم إِذَا قَـ.ضوا مِنْهن وطَرا وكَان أَمر اللهِ مفْعولاً﴾.

* * *

الفهرس

١ ..... ٤

٢ ..... ١٤

٣ ..... ٢٧